دراسة أثرية واجتماعية تحليلية للمجتمع الصحراوي من خلال القصور الصحراوية - تقرت نموذجا-

أ. بوقزولة عبد المالك (جامعة المسيلة)

Abstract:

The research in the architecture of Sahara is one of the most important topics that can lead us to access and uncovering the different facts concerning the art and the desert architecture. This latter is considered as model that still maintains the architectural characteristics, social relations and cultural heritage.

In this intervention, I'm going to present archeological study of Mestoua ksar in Touggourt in order to show the characteristics and features of the population in desert areas according to many aspects: architecturally, socially and culturally. Focusing on the desert location, then the castle presentation as well as the focus on the structural framework characteristics of the castle, the building materials used in construction down to the analytical study of some properties and characteristics of desert architecture. We have obtained that this architecture collected between many structural building types, such as Islamic religious, civil, and military, it really represents the human challenge in this harsh environment.

We ended the intervention by the most important results obtained to answer the problematic that serves one of the conference axes.

مقدمة:

إن البحث في العمارة الصحراوية من الموضوعات الجديرة بالبحث والهامة التي ينبغي على الباحثين في مجال الآثار أن يقبلوا في دراساتهم وأبحاثهم للوصول والكشف على حقائق متنوعة

تخص الفن والعمارة الصحراوية والتي تعتبر نموذجا لا يزال يحافظ على خصائص عمرانية وعلاقات اجتماعية وموروث ثقافي، ومن هنا وجب علينا طرح الإشكالية التالية:

ما هي أهم خصائص ومميزات المجتمع القصوري في المناطق الصحراوية عمرانيا واجتماعية وثقافيا؟

قبل أن نتناول ونتطرق للموضوع محل الدراسة وجب علينا تحديد بعض المفاهيم والمصطلحات مثل مصطلح الصحراء وكذا مصطلح القصر وهذا لكي نتعرف على خصائص ومميزات كل منهما لإظهار مدى ترابط كل منهما بالآخر أو بمفهوم أكثر دقة كيف تأثر الصحراء في القصر عمرانيا واجتماعيا.

1. مفهوم الصحراء:

كلمة عربية تعني الأرض الجرداء إذ مثلت للعرب الأرض الواسعة المسطحة القاحلة من كل نبات في لون هو مزيج من الرماد والبني، هذا هو المعنى الذي حملته في الآداب الجاهلية وتحمل الصحراء طابع الموت ولونه[1]، كما عرفها ابن منظور في معجمه لسان العرب: بأن الصحراء هي تلك المستوية في لين وغلظ دون القف وقيل إنها الفضاء الواسع الذي لا نبات فيه والصحراء من الأرض مثل ظهر الدابة الأجرد ليس بها شجر ولا أكام ولا جبال ملساء، وجمع صحراء صحراوات وصحاري وهي مؤنث الصفة، ويقال أصحر أي الذي يضرب لونه من الحمرة إلى الغبرة[2]، أما الشريف الإدريسي فقد أطلق لفظ الصحراء سنة 1154م على النطاق الشاسع الواقع بين سلسلة الأطلس الصحراوي شمالا وبلاد الزنج جنوبا وفزان شرقا ومملكة صنهاجة غربا[3]، وتمتد الصحراء حليا عبر البلدان التالية: المغرب الأقصى والجزائر وتونس وليبيا ومصر والسودان والتشاد ومالي والنيجر وموريتانيا والصحراء الغربية، وهي تشترك في كونها صحراء يصيب الجفاف في أغلب الأحيان، ومن هنا يمكننا القول أن ما يميز المناطق الصحراوية أن الحياة تكون فيها صعبة وهذا لقساوة مناخها مما يجعل العيش فيها أمرا ليس سهلا.

2. مفهوم القصر:

القصر لغة: يعني المنزل وقيل كل بيت من حجر قرشية وسمي قصرا أيضا لأنه تقصر فيه الحرم وتحبس[4] مصداقا لقوله تعالى: ‹‹... مقصورات في الخيام››[5] ، وجمع قصر قصورا وهو ما تثبته الآية الكريم في قوله تعالى: ‹‹...تتخذون من سهولها قصورا...››[6]، وفي قوله عز وجل: ‹‹...

ويجعل لك قصورا...»[7]، ويعرف أنه ما يشيد من المنازل وعلا بمعنى آخر أنه بناية فخمة واسعة ويقصد بمصطلح القصر بأنه مقر الخليفة أو الحاكم وأفراد عائلته، كما استعملت كلمة قصر في بعض المصادر التاريخية للدلالة على التجمعات السكنية الآهلة بالسكان أو هجرت من طرف أصحابها، ويعرفه الأستاذ محمد الطيب عقاب بأنه المكان المأهول على هضبات مرتفعة من سطح الأرض وبه مجموعة من المساكن والمنازل الموحدة الشكل واللون محاطة بسور مزدوج ومرتفع تتخلله أبواب فوق بروج مستديرة على جانبي مدخل القصر[8].

أما في المناطق الصحراوية فيغلب على تسمية مدن الصحراء ومدن الواحات اسم القصر وهو عبارة عن بناء ضخم مخصص له شكل معماري مفيد في هذه المناطق ويكون مرتبط بزراعة النخيل المحيطة به يبنى قرب الوادي، وتعرف المناطق التي يوجد بها عادة بالواحات وهو لفظ شائع عند سكان الصحراء الذين يسمون مدنهم بالقصر، والقصر مدينة محصنة واحاتها غالبا ما تكون محاطة بأسوار ساحاتها تتوفر على مخازن ومتاجر للقبائل الرحل التي تحفظ فيها الحبوب كلما ذهبوا بعيدا بحثا عن الكلأ لقطعانهم ومواشيهم[9]، ويقصد بالقصر كذلك الهيكل العمراني لمجموعة من الناس في موقع وموضع يتوفران على متطلبات تلك الفئة أو مجموعة من الناس تربطهم رابطة الدم والقرابة والعقيدة.

أما تعريف القصر مرفولوجيا فيعرف على أنه كتلة كثيفة متماسكة ومتجانسة تمتد أفقيا ذات علاقة مباشرة بمساحة خضراء مرتبطة بها هي الواحة وهو مرتبط بتوفر الموارد المائية كشرط لاستغلال المجال وإقامة البساتين وتسمى واحات النخيل[10].

3. مدينة تقرت وقصر مستاوة:

تقرت هي مدينة من مدن الواحات الشهيرة تقع بين بسكرة جنوبا من ناحية وادي سوف غربا من ناحية أخرى، نشأت بالمنطقة حركات ثقافية كانت أولا من الداخل لوجود روح إسلامية بين أهاليها ثم تغذت هذه الروح بفضل الصلة الثقافية العميقة الجذور عبر التاريخ بين واحة تقرت ووادي سوف وبين واحات تقرت والجريد التونسي من ناحية أخرى، فكان علماء وادي سوف ونفطة وتوزر يفدون أفرادا وجماعات إلى تقرت وضواحيها وأذكر على سبيل المثال الشيخ مبارك المازقي التوزري الذي كان يقدم كل سنة إلى بلدة تماسين إحدى واحات تقرت وينزل بمحل المرحوم الشيخ الفضل أحمد أبو بكري، وكان هذا الأخير فقيها ومحققا ومحبا للعلم والعلماء وخصص لهم منزلا ينزلون فيه[11].

وتزخر مدينة تقرت برصيد أثري هام في مجال الآثار الصحراوية أهمها قصر مستاوة الذي كانت النواة الأولى لبنائه سنة 790هـ/1372م، وكان يؤلف حكم سلاطين بني جلاب وعاصمة وادي ريغ منذ سنة 853هـ/1431م[12]، وباحتلال فرنسا تقرت العاصمة السياسية لوادي ريغ في 05 ديسمبر 1854، حيث أصبحت المنطقة خاضعة لهم فقاموا بتغييرات في البنية المعمارية بما يتماشى ومتطلباتهم الدفاعية السكنية من جهة وحقدهم على الموروث الحضاري لهذه المناطق فهدمت جزء من قصر مستاوة أهم معلم تاريخي وحضاري لهذه المنطقة وحولت المساجد والبنايات إلى مراكز للمراقبة[13]، أما بعد الاستقلال فقد عرف قصر مستاوة تحولات عديدة ومزيدا من التدهور ورغم ذلك بقيت بعض معالم القصر تشهد على فترة من أزهى الفترات لحكم بني جلاب وسمي بهذا الاسم نسبة لقبيلة مستاوة الزناتية التي كانت تشكل أغلب سكان القصبة في ذلك الوقت، فقد ساعد هذا القصر على استقرار العنصر البشري بالمنطقة وذلك لما يتمتع به القصر من خصائص كونه يوجد في قلب المدينة وعلى منطقة منبسطة فهذا الانبساط أعطى للقصر شكل دائري ونمط عمراني إسلامي وكان يحيط بالقصر خندق يتراوح عمقه من ثلاثة إلى أربعة أمتار وعرضه حوالي عشرة أمتار، أما دخول القصر فكان بواسطة جسور متحركة للوصول إلى مدخلين رئيسيين وهما باب السلام وباب الخضراء مع وجود باب سري يدعى باب الغدر[14].

4. خصائص الإطار البنائي للقصر والمواد المستخدمة:

إن الإطار المبنى للقصر المتراص سيكون من عدة أحياء سكنية مقسمة حسب العائلات الفاطنة داخله وتتكون الأحياء من منازل متشابكة قصد التقليل من التعرض إلى أشعة الشمس تتوفر على شبكة من الطرق المتفرعة وتتدرج في الحجم لتستجيب لمتطلبات التقسيمات الداخلية تبدأ بالشوارع الرئيسية التي تتفرع إلى طرق ثانوية شبه خاصة تسمى زقاق والحي السكني يتكون من تجمعات كالخلايا يعد المسكن خليتها الأساسية المجهز بحيث يوفر حرية وخصوصية الحياة الأسرية يتوفر على مجال مفتوحة يدع الحوش يتوسط المساكن حوله تبنى الوحدات الأخرى تؤدي مختلف الوظائف اليومية ويذكر الأستاذ علي حملاوي في دراسته حول قصور منطقة الأغواط أن القصور تبنى في مناطق تتوفر على قدر كبير من الموارد المائية والنباتية والأراضي الصالحة للزراعة تمكن من توفير العيش لسكانها وهذا ما أكده وصف الرحالة في العديد من المرات وقد كانت القصور في البداية بمثابة أماكن تخزن بها منتجات

القبائل المتاخمة لها فقصر تاجموت كان عبارة عن قاعدة لبعض القبائل البدوية وبه كانت تخزن منتجاتها وبضائعها مثل قبيلة أولاد يعقوب وزغارة والعمور وشعانبة وتمليلي ومع مرور الزمن شهدت إقبالا كبيرا من النازحين علاوة على كونها تعد من المحطات التي كانت تمر بها القوافل التجارية كل هذا أدى بالضرورة إلى انتعاشها واتساع عمرانها إلى أن أصبحت على ما هي عليه الآن[15].

وباعتبار أن أهم ومعظم الأقاليم الصحراوية تقع في بيئة صحراوية نجد أن المباني قد تأثرت بتلك البيئة فبدت بصمات هذه البيئة واضحة عليها وانطلاقا من التنوع البيئي برز التنوع في الطرز المعمارية والمدارس الفنية وظهرت بذلك العمارة الدينية الإسلامية في ثوب جديد ولكنها بقيت وفية لتقاليد معمارية مستوحاة في الدرجة الأولى من الدين نفسه ومن البيئة الصحراوية التي احتضنتها[16].

وكان للإنسان الصحراوي دور كبير في بناء وتشيد هذه العمائر في معظم الحالات يكون هو الذي يبني بنفسه ويحضر مواد البناء لوحده[17].

5. المواد المستخدمة في البناء:

إن المواد المستخدمة في البناء هي المواد المحلية التي فرضت شكل البناء ونمطه وسمحت باستخدام تقنيات تركيب عناصر هندسية.

أ. الرمل:

والذي يحتوي على الطين له خصائص لينة سمحت له أن يكون بلاطا يستخدم للاتساق وهو خليط من الجبس التقليدي له لون رمادي يستخرج من المقطع[*18*].

ب. النخيل:

يستخدم كل أجزائها في البناء ويستخدم النخيل بعد موته خاصة الجذوع التي تستعمل كدعامات بعد قطعها طوليا من ثلاثة إلى أربعة أجزاء.

ت. الطوب:

ويتم الحصول عليه بخلط الطين والرمل بالماء وتستخدم منه وتقطع بواسطة اليد وتجفف بعد تعرضها للشمس لاستخدامها في بناء الجدران الداخلية[19]، أما الجدران الخارجية فيتم

بناؤها بالحجارة لصلابتها ومقاومتها لجميع الظروف بالإضافة إلى مواد أخرى يتم استخدامها على حسب احتياجها ووظيفتها[20].

6. الدراسة التحليلية لبعض خصائص ومميزات العمارة الصحراوية:

تتجلى لنا من خلال ملاحظتنا للعمران الصحراوي ومن خلال الزيارات الميدانية والدراسات الأكاديمية جملة من الخصائص والمميزات نذكر منها ما يلي:

- أن العمارة الصحراوية خاصة القصور منها قد جمعت بين أنواع العمارة الإسلامية الدينية والمدنية والعسكرية.
- العمارة الصحراوية تمثل بحق تحدي الإنسان الصحراوي لبيئته القاسية من مناخ وعدم توفر ظروف الحياة الملائمة.
- العمارة الصحراوية قدمت الصورة المثالية في التكافل والتضامن والاحترام والتماسك كما أمر الدين الإسلامي من خلال صورة المجتمع الصحراوي.
- بساطة العمارة الصحراوية بحيث لا نجد تعقيد أو مبالغة لكن نلمس نظرة جمالية فنية من خلال ما أبدعه المعماري الصحراوي وتوظيفه للمواد المتوفرة لديه.
- استغلال المواد المحلية المتوفرة وتسخيرها في إنشاء عمائره ومبانيه وهي في حد ذاته تحدي للإنسان الصحراوي دون اللجوء إلى استيرادها من مناطق أخرى يتطلب شروطا قد لا يستطيع توفيرها.
- المحافظة على حرمة وقداسة القصر بعدم السماح للأجانب بالتجول داخل الشوارع والدروب والأزقة الضيقة المؤدية إلى المساكن والاكتفاء بالتجول في الساحات العامة أين تنعقد الأسواق للمبادلات التجارية فقط.
- الدور الذي لعبته التجارة الداخلية والخارجية في تنشيط الحركة العلمية والثقافية والعمرانية والصحراء كانت كمركز استراتجي هام داخليا وخارجيا.
- شروط بناء القصور الصحراوية هي نفسها شروط بناء المدن الإسلامية كما ذكرها ابن الربيع رغم الاختلاف البسيط في مواد البناء المستعملة، ونوع المناخ السائد بين قاري

وصحراوي ولكن هذا لم يمنع العمارة الصحراوية من النشأة والتطور وتطبيق التأثير المستوحاة من الدين الإسلامي.

- المرجعية الدين لأهل القصر هو شيخ الزاوية وهذا يبين حرص سكان القصر على عدمك مخالفة أوامر الله عز وجل في جميع شؤون حياتهم اليومية.
- يضم القصر بداخله جل المرافق الضرورية التي تتكون منها المدن الإسلامية خاصة المسجد الجامع ومساكن العامة والأسواق والساحة العامة والدكاكين وغيره من المرافق الضرورية للحياة.

خاتمة:

من خلال استعراضنا للموضوع يمكننا القول أن العمارة والعمران الصحراوي من المواضيع التي تمكن الباحثين في مجال الآثار لمعرفة أحوال المجتمع خاصة المجتمع القصوري الذي لا زال يحافظ على الخصائص العمرانية والاجتماعية والثقافية وهي خصائص ومميزات تنسب إلى خصائص ومميزات العمارة الإسلامية، واجتماعيا تبين صورة المجتمع العربي الإسلامي في صورته المثالية في التكافل والتضامن والتعاون والمحبة النابعة من تأثير الدين الإسلامي في كل فرد من أفراد المجتمع القصوري، ولكن ما يواجه هذه القصور من مشاكل متنوعة وعوامل مختلفة إذا ما تمت مواجهتها ووضع آليات للتصدي لها لاندثرت هذه القصور وفقدنا رصيدا تراثيا وحضاريا يشهد على عظمة وبراعة الإنسان الصحراوي في تشييده للعمارة الصحراوية بكل أنواعها وترميم ما أمكن ترميمه بطرق حديثة يبقي على الوجه الحضاري والصورة الحقيقية لهذه العمارة الصحراوية الأصيلة وفي الأخير نتمنى أن نكون قد ساعدنا في إظهار بعض خصائص ومميزات العمارة الصحراوية من خلال المجتمع القصوري من خلال هذه المدخلة المتواضعة ونساهم في تحقيق بعض أهداف هذا الملتقى العلمي.

ملحق الأشكال والصور:

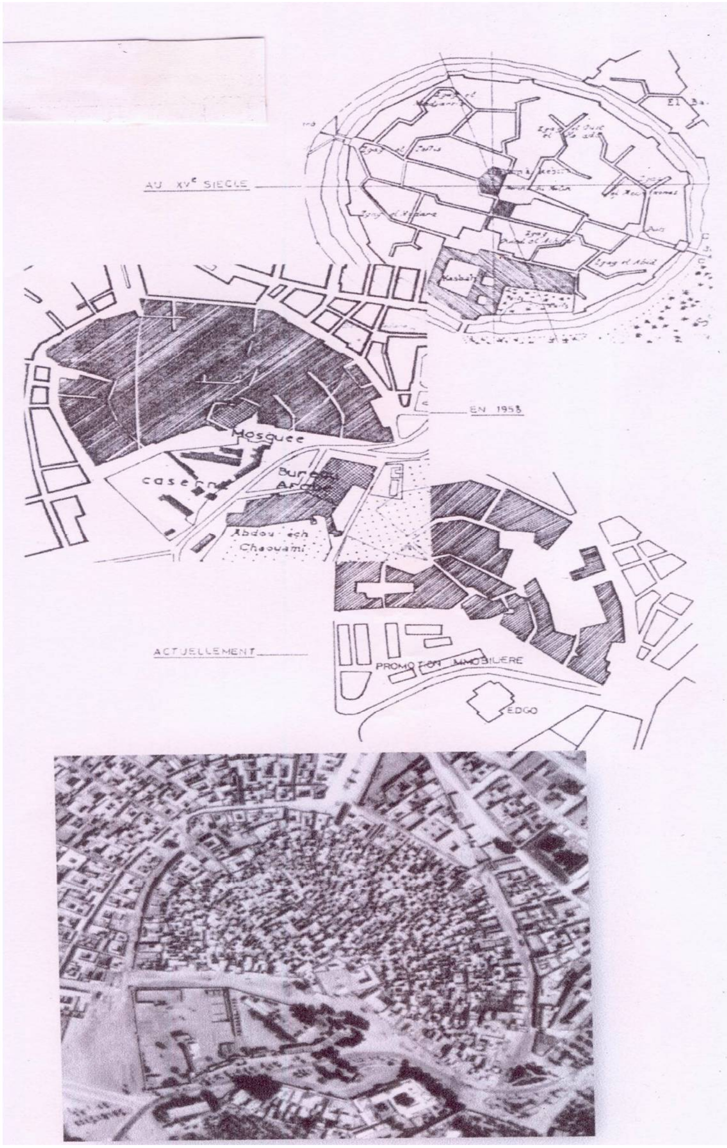

اللوحة رقم 01: مخطط عام وصورة جوية للقصر (عن المهندس دهان عبد العزيز)

الصورة رقم 01: ممارسة الحرف والصناعات بساحة القصر
(عن المهندس دهان عبد العزيز)

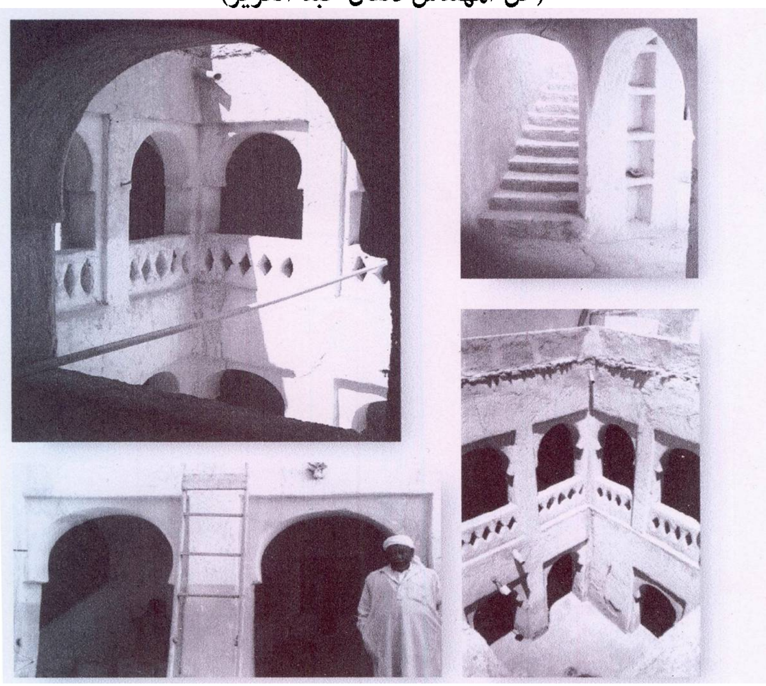

اللوحة رقم 02: بعض العناصر المعمارية بالمسكن التقليدي
(عن المهندس دهان عبد العزيز)

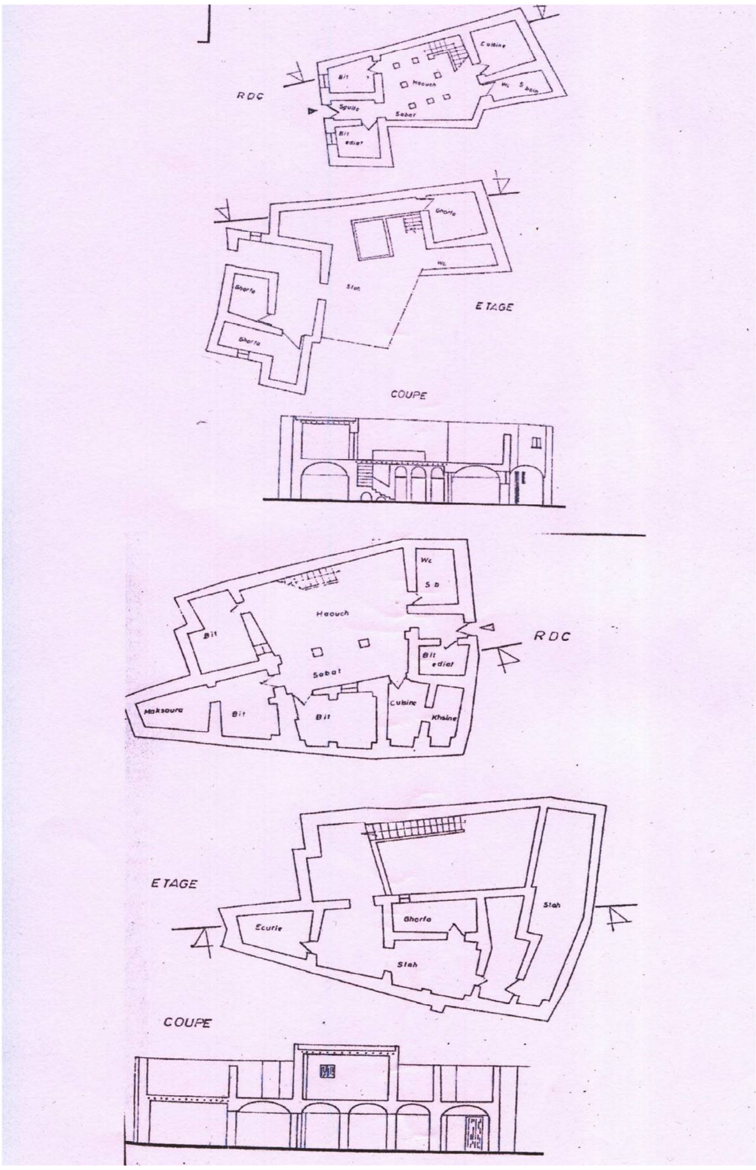

اللوحة رقم 03: مخططات مسكن تقليدي داخل القصر

(عن المهندس دهان عبد العزيز)

هوامش البحث:

1 . غيرستر جورج، الصحراء الكبرى، تر. خيري حماد، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع، والنشر، بيروت، 1961، ص:09.

2 . أبو الفضل ابن منظور، لسان العرب، مج. 4، دار صادر، بيروت، 1997، ص:16.

3 . أبو عبد الله الشريف الإدريسي، القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس مقتبس من كتاب نزهة المشتاق، تح. وتق. وتع. إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص: 87-103.

4 . بيدي محمد، قصور منطقة عين الصفراء، قصر مغرار الفوقاني نموذجا، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر2--، 2010-2011، ص:03.

5 . الآية: 72 من سورة: الرحمن.

6 . الآية: 73 من سورة: الأعراف.

7 . الآية: 10 من سورة: الفرقان.

8 . عقاب محمد الطيب، مساكن قصر القنادسة الأثرية، دراسة معمارية أثرية، دار الحكمة، 2007، ص:18.

9 . بيدي محمد، المرجع السابق، ص:14.

10 . شويشي زهية، مجتمع القصور، دراسة في الخصائص الاجتماعية والعمرانية والثقافية لقصور منطقة تقرت، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في علم الاجتماع، فرع علم الاجتماع الحضري، قسم علم الاجتماع والديموغرافيا، جامعة قسنطية، 2005-2006، ص163.

11 . إبراهيم العوامري، الصروف في تاريخ الصحراء وسوف، تع. الجيلالي لعوامر، منشورات ثالة، الجزائر، 2007، ص:32-33.

12 . شويشي زهية، المرجع السابق، ص:164.

13 . Dehane abd elaziz, guernit salim ; Sauvegarde et réanimation de Mestaoua, Mémoire de fin d'étude en veu de l'obtention du diplôme architecture d'état, Option urbanisme, Institue d'architecture d'urbaime, université de Constantine, Promotion Juin, 1994, p:10 .

14 .Ibid, p:11 .

15 . شويشي زهية، المرجع السابق، ص:166.

16 . حملاوي علي، نماذج من قصور منطقة الأغواط، دراسة تاريخية وأثرية، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية، الجزائر، 2006، ص:331.

17 . بلحاج معروف، العمارة الإسلامية مساجد ميزاب ومصلياته الجنائزية، ط. 1، دار قرطبة، 2007، ص:18.

18. المقطع هو المكان الذي يتم فيه استخراج الحجارة الكلسية لتحرق وتدك وتستعمل في البناء فيما بعد.

19 . علي إبراهيم ليلى، الفن المعماري الجزائري، سلسلة فن وثقافة، 2008، ص:07.

20 . شويشي زهية، المرجع السابق، ص:167.